بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 47 **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة الإنسان**

التاريخ:31\05\2023 م **كتبه: عبدالله ضيف الستري**

لا زال الكلام في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْليلا﴾.

نختم الحديث عن هذه الآية المباركة في مطلبين:

المطلب الأول: هذه الآية من الآيات التي ذكر بأنها موزونة، فبعض الآيات في القرآن على الرغم من كونها من باب النثر، ليست شعراً –والقرآن ليس شعراً– لكن هذه الآية شطرها الأول يصلح شطراً لبحر الرجز، وشطرها الثاني يصلح عجزاً للبحر ذاته.

ولأجل ذلك نلاحظ أن الشاعر أبا نواس ضمّن هذه الآية المباركة في بيت شعر له، فيقول:

وفتية في مجلس وجوههم ريحانهم قد عدموا التثقيلا

دانيةً عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا

البيت الثاني هو الآية بنفسها، وما فعله أبو نواس هذا نوع من الاقتباس، وهذا من المحسنات البديعية في الشعر العربي.

فالإشكال ليس على أبي نواس، وإنما الشبهة إن جاءت تأتي على الكريم، فيقال إن القرآن هو شعر، والحال أن جملة من الآيات في قبال اتهام مشركي العرب للنبي الأعظم ﷺ نفت عن أن يكون النبي ﷺ شاعراً ونفت أن يكون القرآن شعراً. هذه الآية من الآيات التي تأتي فيها الشبهة، وهناك مجموعة من الآيات بهذا النمط، بل السكاكي في أواخر مفتاح العلوم عدد الآيات على تمام البحور[1].

فهل هذه الشبهة حينئذ ترد أو لا؟

[1] عندنا ستة عشر بحراً من بحور الشعر، فهناك آيات تنسجم مع هذه البحور.

هذا البيت الذي ذكره أبو نواس لابد فيه من إشباع الميم، وإلا كان البيت من الناحية العروضية مكسوراً لابد أن نقول: دانية عليهمُ ظلالها وذللت قطوفها تذليلا.

ولذا عندما يحركون هذا البيت يشبعون الميم.

الجواب الأول: الجواب الموردي

الآية لم تتطابق مئة في المئة مع وزن بحر الرجز، ولا نريد حينئذ أن نجيب جواباً مورديا، فسيأتي المستشكل بآية أخرى على بقية البحور. فهذا لا يصلح جواب عن أصل الشبهة.

الجواب الثاني: العرب في الجاهلية وفي الإسلام، يوجد منهم من لا يعرف عنهم أنهم يحسنون قول الشعر، وقال نثراً فوقع شعراً، فهل نقول له شاعر؟ حتماً لا. كي نقول له شاعر أو يقول الشعر لابد أن يكون قاصداً لذلك.

خصوصاً بحر الرجز الذي هو مطية الشعراء، كل شخص لا يعرف الشعر يستطيع أن ينشد على بحر الرجز، لذا تلاحظ كثير من علمائنا الذين عندهم بُعد معقولي ينشدون على بحر الرجز، مثل الشيخ محمد حسين الأصفهاني رحمه الله، حيث ذكر قصيدة لطيفة في حق أئمة أهل البيت عليهم السلام وشهاداتهم. فهذا البحر الأمر فيه سهل، جملة من الأشعار تبين أنها على بحر الرجز، فلا يقال له لا شاعر ولا يقال له قال شعراً، إنما صادف أن طابق ما قاله في النثر وزن من أوزان البحور الشعرية، فلا يؤدي ذلك إلى صيرورة القرآن شعراً.

إذا الجواب الصحيح هو هذا الجواب الذي نرتضيه.

المطلب الثاني: نلاحظ في هذه الآية المباركة -كما شرحت سابقاً- تتضمن مقطعين:

المقطع الأول: ﴿وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها﴾. معنى الآية أن أغصان هذه الشجر قريبة من هؤلاء الأبرار الذين هم على الأرائك يتكئون.

المقطع الثاني: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْليلا﴾. ثمارها وقطوفها سخرت لهم وذللت. نظير قوله تبارك: ﴿فَاسْلُكي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلا﴾[2] أي مسخراً، التذليل يأتي بمعنى التسخير الذي فيه نوع من الذلة، فلا يبقى الشيء على ما هو عليه، بل يقهر على أمر ما. فيقول هذه الثمار مسخرة لهم.

فهناك عطف بين جملتين، الجملة الأولى فيها قراءتان، ﴿ودانيةً﴾ ﴿ودانيةٌ﴾، بناء على ﴿ودانيةٌ﴾ نكون قد عطفنا جملة فعلية على جملة الاسمية، ﴿ودانيةٌ عليهم ظلالها﴾ فلم يقل ومذللةٌ لهم قطوفها، بل قال ﴿وذللت﴾ استعمل الفعل، فيكون من باب عطف الجملة الفعلية على الجملة الاسمية.

وهذا يكون على تقدير صحة القراءة، ويكون له فائدة بلاغية، فمن فوائد التغيير بين المعطوف والمعطوف عليه قد يكون هو استحضار الصورة لما في هذا التذليل من أمر عجيب عبر عنه بالفعل الذي يدل على الحدوث وعلى التجدد. نظير قوله تبارك وتعالى: ﴿فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾[3] الكذب عبر عنه بالفعل الماضي، والقتل عبر عنه بالفعل المضارع الذي يدل على التجدد، لكن هذا نظير إذ كلاهما جملة فعلية.

أما هنا واحدة تدل على الاستمرار، وأن هذا الاقتراب مستمر وهذا الدنو مستمر، أما هذا التذليل يتجدد. هذا بناء على قراءة الرفع.

وأما بناء على القراءة المشهورة ﴿وَدانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْليلا﴾ فيكون عاطف جملة فعلية على جملة فعلية، فهي على القاعدة؛ لأن دانيةً منصوبة[4].

فيمكن أن يكون قوله: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْليلا﴾ أي الجنة ذللت قطوفها، فتكون في المعنى بمثابة النعت للجنة.

يبقى الكلام في المفعول المطلق ﴿تَذْليلا﴾ نعرف أن المفعول المطلق يأتي على أنواع ثلاثة:

النوع الأول: للتأكيد، ضربته ضرباً.

---

[2] النحل: 69
[3] البقرة: 87
[4] على البحث الذي تقدم سابقاً في سبب النصب.

النوع الثاني: لبيان النوع، ضربته ضرباً شديداً.

النوع الثالث: لبيان العدد، ضربته ضربتين.

هذا المفعول المطلق الذي في هذه الآية للتأكيد، وكلمة التذليل تستحق التأكيد، أن تُسخّر هذه القطوف وتأتي لوحدها شيء عجيب وغريب وغير متعارف، فربما يتوهم السامع أن المقصود شخص يأتي بها، فأراد أن يدفع هذا التوهم، فجاء بالمفعول المطلق الذي غرضه التأكيد.

بهذا المقدار يكون قد تم الكلام في هذه الآية المباركة.